ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

بعض مواقف علماء الجزائر من أوضاع مغرب القرن 19م " أبو حامد العربي المشرفي نموذجا "

Some Attitudes of the Algerian Scholars from the Situation of Morocco in the 19th Century: "Abu Hamed Al-Arabi Supervisor Model"

د.الزهيد علوي صص198- 218

Zahid Alaoui
دكتوراه في تاريخ المغرب المعاصر- جامعة ابن طفيل بالقنيطرة - المغرب
أستاذ التّعليم الثّانوي التّأهيلي- الأكاديميّة الجهويّة للتّربيّة والتّكوين لجهة مكناس/فاس- المغرب.
zahidalaoui1@gmail.com

تاريخ استقبال المقال:2019/01/07، تاريخ المراجعة:2019/02/11، تاريخ القبول:2019/04/14.

ملخص: شكّلت التّجربة التّاريخيّة التي عاشها المغرب خلال القرن 19م موضوعا للدّراسة والنّقد من طرف نخبة من المثقفين المغاربة أنذاك، وقد شارك العلماء الجزائريون المهاجرون إلى المغرب خلال هذه الفترة في هذا الدّور مِن مُنطلق الانتماء الدّيني والقومي وواجب النّصح والتّوجيه، وقد جاءت كتاباتهم كردّ فعل على الأوضاع التي بدأ يعيشها المجتمع المغربي، وتطورت على مراحل تحت ضغط الغزو الأوروبي، واتسّعت مضامينها بسرعة لتصبح نظرية حقيقيّة في مراجعة مقومات النّظام الحضاري، وبُناه الأسّاسيّة بالخصوص، بما فيها البنيّة العسكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والماليّة وغيرها، وبذلك شكّل علماء الجزائر المهاجرون إلى المغرب بعد دخول الاحتلال الفرنسي لبلادهم جزءًا معتبرًا من نخبة الفقهاء والمفكرين المغاربة، الذين تبنوْا خطاباتًا فقهيةً وفكريةً تأسّست على قاعدة الجمع بين التّحديث والتّأصيل بهدف المراجعة والنّقد، لتجديد الهياكل والنّظم والتّقنيّات بقصد الحصول على القوة المتكافئة مع الأخر الأوروبي.

نحاول من خلال هذا المقال أن نرْصد مدى مساهمة الجزائريّين في تجربة الإصلاح بالمغرب، انطلاقا من شخصية "أبي حامد العربي المشرفي" الذي عاش حوالي 90 سنة قضى أكثر من نصفها بالمغرب، وأغلبها بمدينة فاس، وذلك في الفترة الممتدّة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

من 1260هـ/1843م إلى 1313هـ/1895م؛ أي من فترة حكم السّلطان عبد الرّحمان بن هشام (1822م-1859م) إلى نهاية فترة حكم السّلطان الحسن الأوّل (1873م-1894م)، وتكلّف بعدّة مهام، وقام بعدّة وظائف، كالتّدريس، ونسْخ الكتب، كما كلّفه السّلطان بشرح رسائله إلى بعض القبائل، وحاول بكتاباته التّاريخيّة والأدبيّة والفقهيّة الإجابة على الإشكالات العميقة التي عرفها المجتمع المغربي نتيجة تزايد الضغوط الأوروبيّة عليه، فالعربي المشرفي لم يكن منعزلا عن الأحداث التّاريخيّة التي كانت تستجدّ من حين لأخر بالمغرب، أو العالم الإسلامي، فقد كان شاهدا على كلّ التّطورات التي عرفها عصره، ابتداء من احتلال فرنسا للجزائر إلى وفاة السّلطان محمّد بن عبد الرّحمان، ولم يعايش الأحداث بوجوده؛ إنّما عايشها أيضا بقلمه، فسجّل كلّ ما لفت نظره، أو أُثر على نفسيّته، فكيف كانت مواقفه وأراءه من بعض القضايا الشّائكة بمغرب القرن 19م؟.

ذلك ما سنحاول التّطرّق له في هذا المساهمة عبر المحاور التّاليّة:

- التّعريف بالعربي المشرفي، ومختصر حياته، وسيرته العلميّة.
- آراؤه ومواقفه من بعض قضايا مغرب القرن 19م.

الكلمات المفتاحيّة: مغرب القرن 19م؛ العربي المشرفي؛ علماء الجزائر؛ الأمير عبد القادر؛ الحماية القنصليّة؛ الإصلاح؛ احتلال الجزائر؛ الضغوط الأوروبيّة؛ تنظيم الجيش؛ المجتمع المغربي.

Abstract: *The historical experience that Morocco experienced during the 19th century was a subject of study and criticism by elite of Moroccan intellectuals at the time. During this period, Algerian scientists participated in this role of religious and national affiliation and the duty of advice and. Their writings came as a reaction to the situation in Moroccan society, and were developed in stages under the pressure of the European invasion. The content of these writings expanded quickly to become a real theory in reviewing the components of the civilizational system, particularly, its basic structures namely, military, political, economic, financial, etc. In this context, the Algerian scientists who immigrated to Morocco after the entry of the French occupation of their country, made a considerable part of the Moroccan scholars and intellectuals elite. These latter adopted religious and intellectual courses combining modernization and originalization with the purpose of editing and criticism, to renew the structures, systems, and techniques in order to obtain equal power with the other- the European.*

In this article, we try to monitor the contribution of the Algerians to the reform experience in Morocco, based on the personality of Abu Hamid Larbi El mcharfi who lived almost 90 years. He spent more than half of these years in Morocco, mostly in Fez, in the period between 1843 and 1895, from the reign of Sultan Abdu Rahman Ibn Hisham (1822-1859) to the end of the reign of Sultan Hassan I (1873-1894). He took in charge many duties and varied occupations, such as teaching, and copying books, The sultan commission led him to explain his letters to some tribes, and tried by his is writings historical, literary and jurisprudence to answer the deep problems experienced by Moroccan society as a result of increasing European pressure on him. Larbi El Mcharfi was a supervisor was not isolated from the historical events that were emerging from time to time in Morocco or the Islamic world. He was witnessed all the developments of his time, from the occupation of Algeria by France to the death of Sultan Mohamed Ibn Abderrahmane. He did not experience the events of his presence. He also lived with his pen, and recorded all that drew his attention or impact on his psychology. Now, the question is: how were his positions and opinions on some thorny issues in Morocco in the 19th century?

This is what we will try to address in this contribution through the following sections:

- A short biography of Larbi El mcharfi, his life, and his scientific career.

- His views and positions on some of the issues of Morocco in the 19th century.

Keywords: *Morocco 19th century ; Larbi El mcharfi; Scholars of Algeria ; Prince Abdul Qader; Consular Protection; Reform; Occupation of Algeria; European pressures; Organization of the Army; Moroccan society.*

مقدمة: جاءت الكتابات التّاريخيّة حول مغرب القرن 19م كردّ فعل على الأوضاع التي بدأ يعيشها المجتمع المغربي، وتطورت على مراحل تحت ضغط الغزو الأوروبي، واتّسعت مضامينها بسرعة لتصبح نظريّة حقيقيّة في مراجعة مقومات النّظام الحضاري، وبُناه الأساسيّة بالخصوص، بما فيها البنيّة العسكريّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والماليّة وغيرها.

شكّل العلماء الجزائريون المهاجرون إلى المغرب بعد دخول الاحتلال الفرنسي لبلادهم جزءًا معتبرًا من نخبة الفقهاء والمفكرين المغاربة، الذين تبنوْا خطابات فقهيّة وفكريّة،تأسّست على قاعدة الجمع بين التّحديث والتّأصيل بهدف المراجعة والنّقد، لتجديد الهياكل والنّظم والتّقنيّات بقصد الحصول على القوّة المتكافئة مع الأخر الأوروبي[1].

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

ويعتبر "أبو حامد العربي المشرفي" أحد أعلام الجزائر الذين كانت لهم أراءًا إصلاحية ومواقفًا مميزة من أوضاع مغرب القرن 19م، حاول من خلالها الإجابة على الإشكالات العميقة التي عرفها المجتمع المغربي نتيجة تزايد الضغوط الأوروبيّة عليه. من هذا المنطلق نحاول في هذه المقالة، بعد إحاطة مختصرة بشخصية المشرفي، أن نقف على بعض مواقفه وأرائه الإصلاحيّة، كأحد مُنظري الحركة الإصلاحيّة بالمغرب خلال القرن 19م.

فكيف كانت مواقفه وأراءه من بعض القضايا الشّائكة بمغرب القرن 19م؟.

أوّلاً: التّعريف بأبي حامد العربي المشرفي: يقدّم المشرفي نفسه على أنّه هو:" العربي بن عبد القادر بن علي بن مسعود بن أحمد بن أبي جلال الأصغر بن أحمد بن أبي جلال الأكبر بن عمر بن الصديق، ينتهي نسبُنا إلى عيسى بن إدريس "[2].

وكما هو الشّأن بالنّسبة لجلّ أعلام هذه الفترة، يصعب تحديد تاريخ ولادة العربي المشرفي وضبطه، إلاّ أنّ المقارنة بين مجموعة من الأخبار تسمح بتقدير هذا التّاريخ في بداية العقد الأوّل من القرن 19م[3]. وإذا كان تاريخ ولادة المشرفي يطرح إشكال الضّبط والتّدقيق، فمكان ولادته ليس كذلك؛ إذ أنّه ازداد بقرية الكرط بضواحي معسكر[4].

والأسرة التي ينتمي إليها العربي المشرفي، أسرة مشهورة في غرب الجزائر بنسبها وحسبها، وبأدوارها التّاريخيّة دينيا واجتماعيا وسياسيا، فالمصادر تجْمع على النّسب الشّريف لهذه الأسرة، وتؤكّد على أنّها إدريسيّة النّسب من الفرْع الحَسَني[5]، وأنّها حصلت من سلاطين الأتراك والعلويّين على ظهائرٍ تعترف، وتُثْبت صحّة نسبها الشّريف، وهو ما جعل المشرفي ينشأ في بيئة عائليّة مجبولة على ترسيخ مبادئ التّربيّة المتأصلة في أوساط الزّوايا والشّرفاء، وتلقين أبنائها علوم عصرها، خصوصا وأنّ الأسرة كانت تمتلك مكتبةً خاصّة[6].

وانطلاقا من المؤلّفات الغزيرة والمتنوعة المضامين التي خلّفها العربي المشرفي، يتّضح أنّه تلّقى تكوينا فقهيا وأدبيا يستجيب لشروط العالم الفقيه في عصره، فقد تنَقل بين مراكز التّعليم المعروفة بغرب الجزائر كمعسكر وتلمسان ووهران، طلبا للعلم والتّحصيل على يدّ شيوخها المشهورين، ويبدو أنّه تلّقى أولى أبجديات المعرفة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

ببيت عائلته، فوالده "**عبد القادر بن علي المشرفي**" كان عالما فقيها من أصحاب الأحكام الشّرعيّة، وكان ذا سمعة بين جماعته لاستقامته وتديُنه وعدْله، وهي صفات أهلته لِأَن تحتكم إليه الخصوم، وترضى بأحكامه[7]، ثمّ انتقل للدّراسة بزاوية الكرط مسقط رأسه، ولعلّه التحق بكُتّاب هذه الزّاوية في سنّ مبكرة، ويقول المشرفي عن هذه المرحلة الأوليّة من دراسته:" قرأتُ القرآن قبل أن أبلغَ الحنب[8]، وأشياخي فيه "**سيدي محمّد بن عبد الرّحمان**"،و"**سيدي عبد الله بن ديدة**"،و"**العربي بوروبة**"، و"**محمّد بن عدلة**"، وعلى يدّ "سيدي **عبد الله بن ديدة**"، قرأتُ أحكام القراءة في الرّسم والضبط، و**الدّرر اللّوامع في نقر الإمّام نافع** "[9].

شكّلت مدينة معسكر محطّة أسّاسيّة في مسار تكوين شخصية العربي المشرفي، باعتبار دورها التّاريخي في غرب الجزائر، وما كانت تحفَل به من مؤسّسات تعليميّة حظيت بإشعاعٍ متميزٍفي المنطقة، مثال، المدرسة المحمديّة، والجامع الأعظم[10]، وأشار المشرفي إلى هذه المرحلة من دراسته بمدينة معسكر ، وما تلّقاه فيها من علوم قائلا:" ثمّ شرعتُ في قراءة الألْفيّة بعد حِفظ مَتْنها بمدينة أمّ العساكر، فشيْخي فيها وليّ الله العلاّمة **الطيِب بن عبد الرّحمان** "[11]، كما يذكر عددًا من شيوخه الذين درّسوه خلال هذه المرحلة أمثال، "**أحمد بن التّهامي**"، والملاحظ أنّ المشرفي شديد الاعتزاز بشيوخه المنحدرين من العائلة المشرفيّة[12]، وعلى رأسهم "**محمّد بن عبد الله**" المعروف ب"**سقّاط**" الذي يصفه بإمّام الرّاشيديّة؛ إذ حضر مجلسه في سرد **جامع البخاري الصحيح**، وقرأ على يده في التّفسير أحزابا قراءة وتحقيقا وتدقيقا، كما أخذ عنه النّحو والفقه وعلم العروض[13]، وقد خلّد إعجابه بشيخه في هذا البيت الشّعري:

وَشَيْخُنَا عَبْدُ اللهِ هُوَ ابْنُ عَمّنَا قِرْطَاسُ العُلُومِ المَاهِرِ المُتَفَنِنَا[14].

انتقل المشرفي لإتمام دراسته وتوسيع مداركه إلى حاضرة **تلمسان**، وقد أشار عرضا إلى مُقامه بها وإلى الشّيوخ الذين درّسوه أمثال، الفقيه "**الحاج الدّاودي التّلمساني**"، قاضي تلمسان المتوفى سنة 1271 هـ/ 1854 م[15].

ويمكن اعتبار مدينة وهران التي التحق بها سنة 1824م، محطّة أخيرة في مسار دراسة العربي المشرفي، وبمثابة مرحلة دراساته العليا؛ نظرا لمكانتها التّاريخيّة وعراقة

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

سمعتها العلميّة بالمنطقة، خصوصا بعدما تحوّلت إلى عاصمة سياسيّة للجهة الغربيّة ومقرّ إقامة الباي التّركي بالمنطقة؛ لتخلِف في هذا الدّور مدينة معسكر؛ ولعلّ أجواء الدّراسة بوهران قد ضاعفت من حماس المشرفي في الدّرس والتّحصيل؛ إذ يتذكر في إحدى مؤلّفاته مدى شغفه – صُحْبة أحد أقرانه – بقراءة كلّ ما تقع عليه أعينهما خلال تلك المرحلة؛ خصّوصا وأنّه وجد نفسه داخل وسط مألوف، وأمّام بعض شيوخه الذين درّسوه من قَبْل بمدينة معسكر مثل "**أحمد التّهامي**"، الذي تردّد لمجلسه بجامع وهران الأعظم، واستفاد من دروسه في الفقهيّات، و"**مصطفى بن التّهامي**"، و"**محمّد بن عبد الله سقاط**"[16]، ودامت إقامة المشرفي بوهران إلى سنة 1245هـ/ 1830م، التّاريخ الذي سجّل ظهور القوات الفرنسيّة بالشّواطئ الجزائريّة، وذكر في ذخيرته عددا آخر من شيوخه منهم: "**محمّد بن عامر البرجي**"، و"**محمّد بن عاشر**"، و"**عبد القادر بن الجندور**"[17].

لا ريب أنّ مسيرة العربي المشرفي الدّراسيّة كانت تسير في الاتّجاه الذي سلكه من قبله علماء وفقهاء العائلة المشرفيّة، لولا المستجدّ التّاريخي الذي طرأ مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث اضطرّ إلى ترْك مجالس العلم والعودة إلى موطنه لتدريس الصبيان، ففقل عائدا إلى مسقط رأسه بعد قضاء حوالي ستّ سنوات بوهران:" ففاجأنا خروجُ الإفرنس - دمّره الله - للثّغر الجزائري، فلم يتمَّ لنا المُراد في قراءة التّفسير، ومتون الصِّحاح، فرجعتُ لغريس ظافرًا بالنّحويّات والفقهيّات والحمد لله، وانتصبتُ في حياة والدي للتّدريس، وقرَّت بي عينه "[18]، إلاّ أنّ التّخلّي الاضطرّاري عن مجالسة شيوخه لم يؤثر على معنوياته في مواصلة التّكوين العصامي، ذلك أنّه واظب على مجاورة شيوخ المعرفة ساعيًّا إليهم في الآفاق، ولم تمنعه ظروف الفوضى السّائدة غداة الاحتلال الفرنسي من زيارة **زاوية مجاجة**[19]سنة 1249هـ/1833 – 1834م، كما نجده يستغلّ فرصة مروره بمصر خلال رحلته إلى الحجاز سنة 1265هـ/ أواخر سنة 1848م لحضور بعض المجالس العلميّة بها[20]، فاجتمع بشيخ الإسلام فيها **الإمّام البجوري** سنة1265هـ/1849م،وحضر مجلسه الدّرْسي في إقراء التّفسير، وتبرّك به، وحضر مجالسًا فقهيّةً لغيره[21].

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

هذا الشّغف بالتّحصيل والتّعلّم صاحَبه حسّ مماثل بالمطالعة والقراءة وجمْع المخطوطات منذ المراحل الأولى للدّراسة، وقد رجّح "**أبو القاسم، سعد الله**" أن يكون المشرفي قد توفّر على خزانة مهمّة من المخطوطات حملها معه عندما هاجر إلى المغرب، وأنقذها من الضياع[22]، ويبدو أنّ الرّغبة في مطالعة الكتب والتّنقيب في الخزانات التي صادف زيارتها قد لازمته طيلة حياته، فنجده يتحدّث في كتابه "**نزهة الأبصار**" عن اطّلاعه على محتويات بعض الخزانات في رحلته إلى جنوب المغرب، مثال، خزانة "**الحسن التّمكدشتي**"[23]، وخزانة "الزّاويّة المختاريّة" بمراكش[24].

– **هجرته نحو المغرب:** انطلقت أولى وفود المهاجرين الجزائريّين إلى المغرب مباشرة بعد إنزال طلائع القوات الفرنسيّة بالجزائر، كانت وجهتهم الأولى نحو مدينة تطوان التي بلغ عددهم بها في أكتوبر 1830م حوالي 300 شخص، ونفس العدد بطنجة[25]. أمّا المشرفي، فيؤرخ لهجرته بهزيمة عين طاقين[26]؛ إذ اعتبرها حدًّا فاصلا بين مرحلتين حاسمتين في حياته، وفي مسار المقاومة بصفة عامّة، حيث نعتها بسنة التّحوّل في مساره الشّخصي عندما أرّخ لها في إحدى قصائده قائلا:

وَفِي السَّتِينِ مِنْ هَذَا القَرْنِ نَظَمْتهَا وَفِي حِلَلِ الأَهْوَالِ كُنْت أَرْفَلُ
وَفِي ثَالِثِ عَشَر القُرُونِ أَسيدي وَفِي شَهْرِ جُمَادَى الثَّانِي كَانَ التَّحَوُّلُ[27]

في البيتين إشارة إلى أنّ هجرة المشرفي كانت بالضّبط في شهر جمادى الثّانيّة 1260هـ/ يونيو 1843م، وهي السّنة التي تحرّكت فيها جموع المهاجرين في عدّة اتّجاهات[28].

وكغيره من النّخبة المهاجرة ربط المشرفي هجرته بالوازع الدّيني، وحاول تبرير خروجه من وطنه بكونه أصبح دار كُفْر، حُرِّمت السّكنى به، والمكوث تحت سلطة غير إسلاميّة، ودافع من نفس المنطق عن اختياره المغرب كموطن للهجرة:" فولاية أهل بيت النّبوءة أمان لهذه الأمّة من عذاب الدّنيا وعذاب الآخرة، وهذا هو أحد الأسباب التي جاءت بنا للمغرب معشر المهاجرين، واخترنا الهجرة إليه دون الهجرة لأرض تونس وما وراءها من الأمصار التي يحكم فيها سواهم، قال عليه الصّلاة والسّلام:« وِلاَيَةُ أَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي»، ولا شكّ أنّ البلاء يحوم حول ديّارهم، ويدفعه الله عنهم بسبّب ولايتهم، ألا ترى إلى فاس وأحوازها؛ بل وجميع الإيالة المغربيّة حواضرها وبواديها كيف

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

نجّاها الله ممّا أصاب غيرهم من واسطة المغرب وتونس المجاورة لها؟، فقد تغيرت أحوالهم بظهور كلمة الكفر في تلك النّواحي أعاده الله للإيمان والإسلام "[29].

انطلقت رحلة المشرفي في اتّجاه التّخوم الغربيّة ضمن وفد ضمّ عددًا من أعيان غريس منهم، بعض أفراد العائلة المشرفيّة، وعلى رأسهم "**محمّد بن عبد الله السّقاط**"، واضطرّ المشرفي إلى تطليق زوجته، التي رفض والدها الهجرة، واكتفى بمصاحبة أبنائه[30]. حطّت عائلة المشرفيّين بقرية بوصمغون، إلاّ أنّ مقامها هناك لم يتيسر بحكم سيادة نفود الطريقة التّيجانيّة الذي لا يتلاءم مع تشبع المشرفيّين بالطّريقة الدّرقاويّة[31]، فالتجأ موكبهم إلى **الشّيخ بن الطيّب**، زعيم **أولاد سيدي الشّيخ غرابة**، غير أنّ هذا الأخير حاول - حسب رواية **ميشو بلير**- أنْ يسلب وينهب قافلة المهاجرين، ممّا اضطرّهم إلى تأديّة قدر مالي مهمّ مقابل السّماح لهم بالمرور وحراستهم إلى أن بلغوا مدينة وجدة، ومن هناك راسل السّقاط السّلطان الذي بعث لهم دوابا وخيولا ومائة فارس لحمايتهم ومرافقتهم إلى مدينة فاس، حيث وضع المخزن بيت **دار الزّموري** بدرب تادلة تحت إمرة محمّد بن عبد الله سقاط الذي فضّل المكوث بزاوية الصقليّين مكتفيًّا بإرسال عائلته فقط إلى تلك الدّار[32].

لكنّ المشرفي أورد رواية أخرى يشير فيها إلى التقائه **بالأمير عبد القادر** عند جبل بني يزناسن قبل الدّخول إلى وجدة، وإلى الكيفيّة التي حاول بها الأمير ثَنْيه عن مواصلة الرّحلة نحو فاس، واستطاع أن يفلت من مطاردة أتباعه، ثمّ اللّحاق بالسّلطان برباط الفتح:" فوجدتُ **الحاج عبد القادر بن محيي الدّين** أمّام جبل بني يزناسن بدائرته، وتحت الرّحلى الذي ينزل به، ويرحل دخلتُ وجدة، بعث لي أن أنزل بدائرته"، فقلت له: "لم يبق لي نزول معك"، فقال لي: "ولِمَ؟"، قلت له: "الشّريعة المطهرة تأبى ذلك، لأنّ من دخل رعيةّ ملِك، وتولّى استيطانها دخل فيما دخل فيه المسلمون من البيعة، فأخّر بغضي"، ولمّا سمع بي خرجتُ بنفسي قاصدا الانتقال لفاس بعث خيلا في طلبي، فلم يسلكو طريقا سلكتُها إلى أن دخلْت حاضرة فاس، ولحقتُ السّلطان المقدّس برباط الفتح، ووزيره يومئذ العلاّمة "**ابن إدريس**"، وبيدي تخميس قصيدته التي حرّض فيها جيش والد مولانا المقدّس على الجهاد مطلعُها:

يَا سَاكِنِي الغَرْبِ الجِهَادُ الجِهَادُ فَالكُفْرُ قَدْ شَارَكَكُمْ فِي البِلاَدِ

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

والشِّرْكُ قَدْ نَصَبَ أَشْرَاكَهُ مُسْتَعْبِدًا بِكَيْدِهِ لِلْعِبَادِ

فقلتُ في تخميس الشّطر الأوّل منها:

طَاب الصُّبُوحُ لَكُمْ بِتِلْكَ الوِهَادِ فَالفَرْطُ فِي الشُّرْبِ هَنِيئًا وَهَاد

كَمْ ذَا التَّوَانِي والشَّبَابُ مِهَاد يَا سَاكِنِي الغَرْبِ الجِهَادُ الجِهَادُ

ففرح بي غاية، وفوق النّهاية كنتُ أدمجتها في مؤلّف سمّيتُه "**طرس الأخبار لِما جرى للمسلمين آخر القرن الثّالث مع الكفار**" أدخلْته لسيدنا، فأخرج لي فرسا أنثى من الإصطبل الشّريف بسرجها ذات سلاح جيّد جديد، وكتب لي للقائد "**علي بن العربي الشّركي**"، قائد وجدة، يكري الحَمّار، ويُبلغ أولادي لمدينة فاس، ففعل -رحمه الله- "[33].

وهكذا كانت مدينة فاس نهاية رحلة طويلة وشاقّة بالنّسبة للعربي المشرفي وعائلته، إلاّ أنّ فرحة الانعتاق التي زكّتها حفاوة الاستقبال بأرض الإسلام بالمغرب سرعان ما انمحت أمّام صدمة الواقع الجديد، وصعوبة التّأقلم مع وضع اللاّجئ الذي فقد كلّ شيء، خصّوصا وأنّ الإقامة بفاس تأثّرت بتغيرات الأوضاع بالحدود الشّرقيّة، وتذبذب العلاقة بين السّلطان والأمير عبد القادر.

عاش المشرفي حوالي 90 سنة، قضى أكثر من نصفها بالمغرب، وأغلبها بمدينة فاس، وذلك في الفترة الممتدّة من1260هـ/1843م إلى 1313هـ/1895م؛ أيّ من فترة حكم **السّلطان عبد الرّحمان بن هشام**(1822م-1859م) إلى نهاية فترة حكم **السّلطان الحسن الأوّل**(1873م– 1894م)، و تكلّف بعدّة مهام، وقام بعدّة وظائف، كالتّدريس، ونسْخ الكتب، كما كلّفه السّلطان بشرْح رسائله إلى بعض القبائل.

– **انتاجات المشرفي الأدبيّة والفكريّة:** من المميزات التي طبعت مؤلّفات المشرفي الغزارة وتنوع الحقول المعرفيّة، فقد برع في نظْم القصائد مدحًا وهجاءً[34]، وألّف **نزهة الأبصار**، و**ذخيرة الأواخر والأوّل** اللّتان تعتبران من المؤلّفات المتألقة بين ما ألّف في أدب الرّحلة في مغرب القرن التّاسع عشر، وإلى ذلك أفاد المشرفي، ضمن مؤلّفاته في التّرجمة لعدد وافر من أعلام التّصوف والأدب والفقه، وأعيان الحكم بالجزائر والمغرب، وجاءت تآليفه التّاريخيّة غنيّة بالمعلومات والفوائد حول تاريخ الجارتين، إضافة إلى احتوائها على آرائه ومواقفه من أحداث عصره، فقد عايش عن

قرب نُظُمًا سياسيّة متنوعة البناء والتّركيب، من نظام بايات الأتراك بالجزائر إلى نواة الدّولة الفتيّة مع الأمير عبد القادر قبل مجاورة نظام المخزن المغربي، زِد على ذلك معاينته أثناء رحلاته لتجارب سياسيّة في الحكم بمصر على عهد **محمّد علي**، وبالجزائر في ظلّ النّظام الاستعماري الفرنسي، وقضى بالمغرب زهاء نصف قرن من الزّمن عاصر خلاله حكم ثلاثة سلاطين، وكان شاهدا على أحداث وتطورات حاسمة في تاريخ البلاد.

إنّ ما يلفت النّظر عند رصد مؤلّفات العربي المشرفي، إضافة إلى تنوع مضامينها وكثرة عددها، الذي جاوز الثّلاثين هو أنّ نسبة وافرةً منها ظلّت بعيدة عن متناول الدّارسين وحبيسة في خزانات الخواص، أو تعرّضت للتلف والمصير المجهول، ممّا يعيق تبويبها وفهرستها حسب أصناف أدبيّة محدّدة، أو حسب ترتيب كرونولوجي مضبوط، لكنّ الحسّ التّاريخي عند المشرفي كان بارزا في كلّ مؤلّفاته، ممّا يظهر أنّه كان مطّلعا على كتب تاريخيّة متعلّقة بتاريخ المغرب والعالم الإسلامي، فأيّ رأيٍ يبديه، أو فكرة يقترحها، أو موقف يتّخذه، أو نصيحة يسديها، إلاّ ورجع بذاكرته إلى الرّوايات التّاريخيّة لتبرير وتعليل ما رآه صائبا، ممّا يدلّ على سعة اطّلاعه وقوّة ذاكرته، وميوله إلى حقل التّاريخ، فكان تكوينه في الحقل المعرفي التّاريخي، تكوينا رصينا، استحقّ بذلك نعْته، وتسميّته بالمؤرخ بحسب منطق عصره.

كما لم يكن المشرفي منعزلا عن الأحداث التّاريخيّة التي كانت تستجدّ من حين لأخر بالمغرب، أو العالم الإسلامي، فقد عايش كلّ التّطورات التي عرفها عصره، ابتداء من احتلال الجزائر إلى وفاة السّلطان **محمّد بن عبد الرّحمان**، لم يعايش الأحداث بوجوده، وإنّما عايشها أيضا بقلمه، فسجّل كلّ ما لفت نظره، أو أثّر على نفسيّته. وبذلك خلّف رصيدا مهمًّا في المعرفة التّاريخيّة، تجلّت في عدّة مؤلّفات تاريخيّة، جمعت بين التّاريخ العام وتاريخ المغرب والعالم الإسلامي.

ثانيا: آراء العربي المشرفي ومواقفه من بعض قضايا مغرب القرن 19م.

ا- الموقف المتذبذب من الأمير عبد القادر: سار المشرفي على طريق جلّ الفقهاء والإخباريّين المغاربة خلال فترة القرن 19م في بناء موقفه من الأمير عبد القادر، لكن الاستثناء هنا ارتبط بكون المشرفي جزائري الأصل، وكان شاهدا ومشاركا في أطوار

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

المقاومة، حيث عايش مختلف مراحلها من التّأسيس إلى الانتصارات وبناء دولة الأمير، إلى انهيار مشروع الدّولة الفتيّة، واندحار فلول المقاومة[35].

ولا شكّ أنّ التّقلبات التي صاحبت مواقف العربي المشرفي من الأمير عبد القادر وحاشيته كانت خاضعة للتّطورات التي عاشتها المقاومة الجزائريّة؛ سواء على الصعيد الدّاخلي، أو في علاقتها مع الفرنسيّين، ومع المخزن الرّحماني، وهكذا نجده ينعت الأمير عبد القادر بالملك الهُمام، والملك الإمّام[36]، وبأنّه" قاد الجنود، وخفقت على رأسه الرّايات والبنود، طأطأت له الرّؤوس، طارت شهرته في المغربين والمشرقين وأقطار سوس، قاتل عدوّه، وناصله، وقرَّب كلّ صنديد شجاع، وواصله، وطالت في المقابلة مدّته، وضوعفت بالهدايا مودّته، أحيا مدينة جدِّه "**تاقدمت**" المذكورة، وأحيا مدائن في ذلك المعمور، **كطازى والبقار**"[37]، ونظم أرجوزة طويلة يسرد فيها مختلف مراحل المقاومة الجزائريّة وتحرُّكات الأمير عبد القادر منذ دخول الفرنسيّين إلى الجزائر، ولا نجد فيها أيّ تحامل على الأمير.

يُرْجع المشرفي هذه الانتصارات إلى التّنظيم الجيّد والمحكم الذي أجراه الأمير عبد القادر في المناطق الخاضعة لسلطته، من ذلك تأسيس جيش نظامي، وتعيّين الحكام والقواد على القبائل في المدن والمراسي:" جيش الجيوش، وجاهد في كلّ فجٍّ من فِجاج الجزائر، وغنِم الغنائم، وأسِرَ الأسرى، وأفنى الجيوش العديدة للكفار، وجعل الخلفاء في مقابلة الثّغور، [...] وكلّ واحد اتّخذ عسكرًا يُمَونِه من وظائف قبائله وزكوات أموالهم وأعشار حبوبهم، واتّصل الجهاد في كلّ بلاد، وجلّ خلفائه ماتوا بالجهاد "[38].

إلاّ أنّه على النّقيض من التّنويهات التي خصّصها العربي المشرفي للأمير عبد القادر ودولته الفتيّة، نصادف في كتاباته كمًّا من النّقد اللاّذع والأحكام السّلبيّة القاسيّة في حقّ كلّ مكونات هذه التّجربة السّياسيّة التي استمرّت من 1832م إلى 1847م، ممّا يطرح تساؤلاتًا حول الأسباب الذّاتيّة والموضوعيّة التي وجّهت هذا الانقلاب الواضح في موقف المشرفي.

ظهرت أولى الخلافات بين زعيم المقاومة وأعيان وشرفاء معسكر منذ 1252هـ/1836م مثال، تعيّين مصطفى بن التهامي ابن عمّة عبد القادر خليفة للأمير على مدينة معسكر، ممّا أغضب أعيانها وعلماءها وأشرافها احتجاجا على سلوكات

ابن التّهامي، ومن المقرّبين الذين انفضّوا عن مجلس الأمير ، عمّه السّيد علي أبوطالب بعد أن استبدّ الأمير برأيّه، وفلَت مقاليد أمره لبِطَانةٍ من ذوي الجفاء والشّراسة عارين عن آداب الشّرع، وتهذيب السّياسة[39]، والمثال الأخر في نفس السّنة ورد عند صاحب "**تحفة الزّائر**" الذي نعت رؤساء الجيش النّظامي الأوفياء لعبد القادر بأنّهم " أحلاس حربٍ، وفتيان كريهة"[40].

وازدادت الأمور سوءًا بعد توقيع **معاهدة تافنا** سنة1837م التي وصفها **جاك بيرك** بأنّها بمثابة توافق لا يمكن التّنبؤ آنيًّا بإيجابيته، أو سلبيته مستقبلا، واتّهمه معارضوه بأنّه أصبح يغذي طموحات شخصية للتّملك على حساب التّضحيّة بمبادئ الجهاد، خاصّة بعدما عبر السّلطان **المولى عبد الرّحمان** عن امتعاضه من هذا الاتّفاق[41].

إنّ تخلّي الأمير عبد القادر عن جهاد النّصارى المحتلّين بعد توقيع هذه الاتّفاقيّة وتركيز اهتمامه على توطيد سلطته في المناطق الخاضعة لنفوده، كان مصدرا لتأليب بعض الفقهاء والقبائل ضدّه، بسبّب ثقل الكُلَف الجبائيّة والصراعات حول مناصب القيادة، واختصر المشرفي ذلك بقوله:" إنّ عبد القادر لمَّا جار في الأحكام الشّرعيّة، وبدّل القوانين المرعيّة، وتحكّم في الرّعيّة بالحكم الإسرائيلي يجرّه على الضعيف ولا يعاقب الشّريف [...]، وصار يقبض عُشْر الحبِّ، وزكاة المواشي، ويختصّ بها عمّاله وعسكره الماشي، ويجمع في كلّ بلد المقبوض، واتّبع هواه، وترك الفروض [...]، وما نصّب نفسه إلاّ لقتال المسلمين، ففي كلّ غزوة يقتل من الأعراب خمسمائة رجل وستمائة فأكثر "[42]، وكان تصرّف الأمير كحاكم فِعلي لإمارته، وإرساء بروتوكول سلطاني كحمل الشّمسيّة واللّواء من الأمور التي انتقده المشرفي بحدّة قائلا:" لتجزع منه النّفوس بأنْ يجعل على رأسه شيئا مرفوعا من الحرير يقيه حرّ الشّمس، ويمشي في ظلّه، فيخرج في زينته وارثا فرعون وقارون، ومتشبها بجاههما "[43].

ومن جهة أخرى، كانت تصفية نفوذ شيخ درقاوة بمنطقة المديّة من العوامل التي وسّعت من هوّة الخلاف بين المشرفي المتشبع بمبادئ الطريقة الدّرقاويّة والأمير عبد القادر، فقد هاجم الأمير على رأس قوات منظمة معقل الحاج موسى الأغواطي الدّرقاوي بمنطقة المديّة، وهزمه في معركة **حوْش عمورة** في 22 أبريل 1834م، ونهب

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

محلّته، وأجبره على الفرّار إلى الصحراء، حيث تحصّن، حتّى قُتل لاحقا في إحدى المعارك ضدّ الفرنسيّين. واعتبر المشرفي ما جرى للدّرقاويّين بما فيهم النّساء والعلماء، من بطْشٍ وسبْي، انعكاسا لعداء الطريقة القادريّة – التي ينتمي إليها الأمير عبد القادر – اتّجاه الطريقة الدّرقاويّة[44].

لا يمكن فصل مواقف المشرفي من الأمير عبد القادر عن الظروف التي عاشها بعد هجرته لوطنه واستقراره بفاس، ومحنة الاعتقال، كما لا يمكن فصل موقف المشرفي عن تغير موقف السّلطان المولى عبد الرّحمان بن هشام من الأمير عبد القادر.

II - موقف المشرفي من ظاهرة الحماية القنصليّة بالمغرب: اسْتشْرت الحماية القنصليّة في أوساط المجتمع المغربي في النّصف الثّاني من القرن 19م وهي الظّاهرة التي توفّرت لها الشّروط القانونيّة منذ الرّبع الأوّل من هذا القرن، مع استقبال رعايا أوروبيّين بالمغرب، ومع تطوّر المبادلات البحريّة وتوافد الأجانب على البلاد، مستفيدين من التّنازلات المخزنيّة والامتيازات النّاتجة عن اختلال موازين القوّة بين المغرب وأوروبا، فأصبح بعض الأهالي خارج سيادة المخزن وخاضعين للسّيادة والقوانين الأجنبيّة، وتزايد عدد المحميّين بشكل مُطْرد؛ سواء في الأوساط الحضريّة، أوالقرويّة. وعرفت الحماية بداية مرحلة مزدهرة غداة توقيع المعاهدة التّجاريّة مع بريطانيا سنة 1856م التي عملت على التّكريس التّدريجي لهذه المكتسبات، وتوسيع الدّائرة الاجتماعيّة والرّقعة الجغرافيّة التي تغطّيها الحماية، وشكّلت المطالب والشّكاوى المتكرّرة للمَحميّين كلّ أشكال التّنازلات؛ سواء عبر الطرق الدّيبلوماسيّة، أو عبر استدعاء القوات البحريّة[45]، وكان الدّافع الذي شجّع العديد من الرّاغبين في الحماية هو التهرّب من الضّرائب والتّكاليف المخزنيّة[46].

عبّر المشرفي عن موقفه من هذه الظّاهرة من خلال كتابه الذي سمّاه " **رسالة في أهل البصبور الحثالة**"[47]، واكتست هذه الرّسالة أهميّة تاريخيّة وفكريّة باعتبارها من أولى ردود فعل الفقهاء والعلماء المنددّة بالحماية القنصليّة؛إذ ألّفها سنة 1270هـ/1851م-1852م، استهلّها بقوله:" الحمد لله، وبعد: فقد توجّه سؤال لأهل العلم -حفظهم الله بحِفظ أهل السّنّة-، وحَشَرَنا في زمرتهم، آمين، عن حادثة في قرْننا هذا في حدود السّبعين والمائتين والألف، وهي دخول المسلمين تحت كلمة الكفر أعاذنا

الله منه، ويُعَبرون عنها بالحماية، معتذرين عن تحصين مالِهم من ثِقل المغارم، مع أنّهم يجعلون حظًّا وافرًا لمن يحميهم بإذلال وطيبِ نفس، فهل يكون المُحتمي بالحماية على هذه الحالة مسلمًا عاصيًا، أو خرج عن دينه بالكُليّة، وللإمّام أن يحكُم فيه اجتهاد"[48].

يَحْكُم المشرفي على المَحمي بأنّه فاسق ضعيف الإيمان، وينتهي إلى أنّه مرتدّ كافر:" [...] فاجر مُفسق ضعيف الإيمان غوغاء، لا يدين لله بدين، كاد أن يكون مجوسيا [...] فأفعال هذا الرّاكن تدلّ على ردّته [...]، وفعلُه المتضمّن لردّته هو استنصاره بالنّصارى"[49]، وأنّ " من استمسك بعجم الكوافر، وخرج عن الجماعة فقدْ تهاون بالدّين، ولم تبق للمحتمي إلاّ منازعة الحقّ-جلّ جلاله-، وأمّا منازعة سلطانه، فقد نازعه في حكمه، وخرج عن طاعته، وصار عيْنًا للكفار ، وجاسوسا لهم يخبرهم بضعف المسلمين، وجَوْر حكامهم"[50].

وبعدما عجز أهل الحلّ والعَقْد عن إجبارهم عن الكفّ عن سلوكهم يدعو المشرفي إلى مقاطعة حاملي الحماية كحلّ اجتماعي شعبي:" فواجب على كلّ من يؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يجالس أهل الحماية، ولا يصادقهم، ولا يواكلهم، ولا يعاشرهم، ولا يناكحهم، وأن يوصي كلّ من لقيّهم بمجانبتهم، وترْك معاملتهم ردْعًا لأمثالهم"[51]؛ بل يذهب المشرفي في رفضه الجذري للحماية القنصليّة وتحريضه على محاربة أصحابها إلى أبعد من ذلك عندما يقول:" إنّ من أعان المحتمي، أو عاشره، أو خالطه، أو أرضته حالته، فهو فاسق ملعون "[52]، وهو نفس الحكم الوارد عند **السّباعي** الذي قبَّح عُذر اللاّهثين وراء الحماية المتجلّي في اتّقاء عبء الوظائف والكَلَف المخزنيّة، معتبرا أنّ المتحصِّن بالكفار كافر ، وعلى تقدير باطل، ونادى بمقاطعة المحميّين وأهلهم؛ لكَوْن الأبناء:" يهرعون على آثار الآباء، ويعتقدون أنّ ما وجدوا عليه آباءهم حقّ "[53].

إلاّ أنّ هذه النّداءات والاحتجاجات التي عبّر عنها المشرفي وغيره من العلماء والفقهاء، لم تجد نفعا أمّام استفحال الحماية القنصليّة، وتضاعف آثارها الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وعجَز المخزن عن مواجهتها، خصّوصا بعدما تكرّست بمقتضى بنود مؤتمر مدريد 1880م، ممّا حذا بالنّاصري في خاتمة **الاستقصا** إلى

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

الإقرار بحالة اليأس العامّة التي خلقها تغلغل الأجانب في المجتمع المغربي، وما نتج عن مخالطتهم للأهالي من تدهور أحوال التّجارة وغيرها من الحِرَفِ، وانقلاب أحوال المعاش[54].

III- رؤية المشرفي في تسيّير شؤون الدّولة وتنظيم الجيش: إنّ إخباريّي القرن 19م لا يحدّدون، أو يعرفون السّلطة كما يعيشونها يوميًّا؛ بل كانوا يدمجونها ضمن إطار السّلطة السّياسيّة الدّينيّة، كما يحدّدها الإسلام في المطلق، فالسّلطان هو خليفة الرّسول، ويملك السّلطة الدّينيّة كأمير للمؤمنين، وبالتّالي أحقيّته في التّسيّير القضائي، وليست هناك إلاّ سلطة واحدة غير قابلة للتّقسيم.

وبناء على ذلك، يجزم العربي المشرفي بأنّ الإمامة " واجب كفاية، كطلَب العلم وزيارة الكعبة "[55]، ويسهب في شرح شروطها، وضبْط قواعدها على أسّس الشّرع وأخبار السّلف مُرَكِّزا، كما جرت العادة عند غيره من المؤلفين، على وجوب طاعة الأمير، من الصّفات التي ارتآها كفيلة بنجاح الخليفة أمير المؤمنين في تدبير شؤون دولته: الشّجاعة والإقدام، والحكمة والعفّة والحلم وكظم الغيظ، والعفو والرّفق والوفاء بالوعود والعهد، والصّدق والحزم في تسيّير أمور الرّعيّة، والدّعاء والتّواضع، وسلامة الصَّدر من الحقد والحسد، والصّبر أمّام الشّدائد، والسّخاء والعدل، والاستعانة في المُلك بالأعوان، من وزراء وولاّة وعمّال ذوي الخبرة والنّجابة للرّأي والمشورة، ومباشرة الحرب، وجمْع المال[56].

وبما أنّ هؤلاء الأعوان يُكَوِنون الرّكائز الأسّاسيّة لنظام الحكم، فقد ركّز المشرفي على وجوب توفرهم على مميزات خاصّة؛ إذ على الحاجب مثلا أن يكون على معرفة بنفسية وطبائع المُلك، وأن يكون فصيح الرّأي، رؤوفا بالرّاغبين في ملاقاة المَلِك، وعدم مماطلتهم بطول انتظار الإذن، والنّزاهة في معاملتهم على قَدَم المساواة، والصّدق فيما ينقل للسّلطان، أو يبلغ عنه[57]، أمّا الوزراء، فيتمّ اختيارهم وِفق نظر الملوك والأمراء[58]، معتبرا أنّ صلاحهم يرتكز على النّصيحة الحسنة للملك، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والاعتدال والشّجاعة؛ لأنّ صلاح السّلطان وفساده لازم عن صلاح الوزير وفساده، وكما أنّ السّلطان إذا صلُح صلُحت الرّعيّة، وإذا فسَد فسَدت، فكذلك الوزير إذا صلُح صلحَ المَلِك، وإذا فسد فسَد المَلِك[59].

ورغم أنّ كلامه المستفيض عن نظام الوزارة لم يخرج عن إطار ما دوّنه معاصروه في الموضوع؛ سواء من حيث التّعميم، أو من حيث النّهل من نفس الأدبيّات التّاريخيّة، فإنّ العربي المشرفي انفرد بإشارات دالّة وعميقة، فقد تحدّث صراحة عن مسألة الأحقيّة والجدارة في تولّي المناصب، عندما وصف سياسة الفرنسيّين بالجزائر في هذا المجال، ودعَى ضمنيًا، من منظور سلفي، إلى نهج نفس السّياسة قائلا:" كما أنّهم لا يُفضلون من جنسهم إلاّ الذي ظهرت شجاعته، وبذلك يكون رئيسا على من لم تظهر له مَزِيّة، وهذا الشّأن عند السّلف"[60]، وفي نفس السّياق اشترط في تعيّين الكُتَّاب انتماءهم إلى نخبة المجتمع، وأن يكونوا من أرفع الطبقات، وأهل المروءة والحشمة، وزيادة العلم وعارضة البلاغة[61]، كما نبّه إلى وظيفة اعتبرها أساسيّة وضروريّة وهي، ديوان العمل والجبايات، وأهميّة الدّور المنوط بالأمناء في ضبط الأمور الاقتصاديّة والتّجاريّة للدّولة[62].

ومن منطلق وجوب طاعة الأمير، دافَع العربي المشرفي عن سياسة السّلطان في مواجهة تداعيات الهزيمة عقب حرب تطوان سنة1859م، مبرّرا الضّعف الذي انكشف أمّام الغزو الإسباني بتقاعس المغاربة، وعدم استيعابهم لاختيارات السّلطان قائلا:" وظهر له بمقتضى نظره السّديد أن يفدي بلاده من الأعداء، وبعد ذلك يستعدّ لبُرْء الدّاء، ففداها بحُسن الاجتهاد، ورجع والحمد لله للاستعداد، لكنّه أيدّه الله لم يجد في مغربنا على الحقّ معينا "[63]، وفي السّياق نفسه، هاجم العلماء الذين عارضوا عقد الصّلح مع الإسبان، معتبرا أنّ السّلطان نائب عن الشّريعة، فله أن يجتهد وعلى العلماء الوقوف والامتثال وعدم التّعرّض لِما حكَم به الأمير؛ لأنّه أدرى بمصالح المسلمين[64].

ومن جهة أخرى، كان المشرفي من المناصرين لتقويّة أجهزة الدّولة، خصّوصا فيما يتعلّق بإصلاح الجيش، فقد استحسن قيام السّلطان **محمّد بن عبد الرّحمان** بإنشاء جيش نظامي منضبط للقواعد العسكريّة قائلا:" وأمّا التي اخترعها هو ومولانا والده، وتحلّى بها طوْقه، وساعده، فهي من سائر القبائل، وإحسان سيدنا إلى إدخالهم في الخدمة آيّل، ومن مُرّن منهم بالخدمة، وجرَّب، استُعْمل، وزِيد له في المُرّتب، وقُرِّب، ومن تكاسل عنها يُطْرد، ويُبْعد، ولا فائدة في العاجز والأشلّ والأقطع"[65]، وأرجع تعثر

الإصلاح العسكري في بدايته على عهد المولى عبد الرّحمان إلى أنّ نظام العسكر بالمغرب غير مألوف وغير مأنوس الاستعمال، وأمّا جيوش الرّكبان والفرسان فلا حصر لعددها[66]، وقد وضع المشرفي هنا أصبُعه على أحد مواطن الخلل الأساسيّة التي عرقلت سيْر تأسيس جيش نظامي قوي في مغرب منتصف القرن 19م، وهي صعوبة استئناس القبائل بالنّظام العسكري المنضبط، تلك الصعوبة التي لم يتجاوزها السّلطان **عبد الرّحمان بن هشام**، رغم لجوئه إلى اللّين، واعتماد نظام التّناوب داخل العسكر، حتّى لا يمّلوا، ويهربوا[67]، ولعلّ انتباه المشرفي إلى هذه المسألة نابع ممّا تراكم لديه خلال أربعة عشر عامًّا من مجاورته للمقاومة الجزائريّة ضدّ الاحتلال الفرنسي، وملاحظاته عن قرب للتّنظيم العسكري الجيّد للأمير عبد القادر.

IV - رأيُه في مسألة انعدام الأمن في مغرب القرن 19م: تحدّث المشرفي في رحلته إلى بلاد الجزائر سنة 1878م بإعجاب عن المنجزات التي حقّقها الفرنسيون بعد أكثر من 48 سنة من استعمارهم لها، وإذ يشير إلى حسنات السّياسة الاجتماعيّة للاستعمار الفرنسي، وما ميّز نظامه في الحكم والقضاء والتّعليم، فإنّه يُلَمح إلى مقارنة الأوضاع ببلاد المسلمين بصفة عامّة وبلاد المغرب الأقصى خاصّة، بناء على ملاحظاته عن دور الأمن والاستقرار الاجتماعي في الرّقي والتّطور، وعبّر عن ذلك بقوله:" كلّ واقف عند حدّه مقيم على هزْله وجدِّه، لا تعدو على أختها عاديّة، في حاضرة، أو بادية، اكسب ما شئت، والبس ما شئت، وتمذهب بما شئت، وصِلْ بمالك على شداد، وابن إنْ شئت إرَم ذات العماد، وإيَّاك والفساد وظُلم العباد، وغصْب الأموال، ونهْب الضوال، وارْعَ الجار ، ولا تؤاخذه إنْ جار "[68]، مقابل ذلك يُلَمِح إلى الأوضاع بالمغرب في صورة قاتمة من تدهور العدل، واستشراء الفقر، وسيادة الغشّ، وانعدام الأمن:" وهذه الخصال التي كانت في الإسلام ها هي الآن للغير الذي لا يُلام، وانعكست الحقائق، وتخالفت الطرائق، فلا يُجار جار؛ بل يُظلم في الوجار، ولا يحمّ ضيْم، ولا يُمطر خير من غيم، وكثُر الغشّ، وظهر في الوجه النَّمَش، واستأسدت الحكّام، وعُطّلت الأحكام، وكثُر الغصْب، وتوإلى السَّلب والنّهب، ولم تنفع الزّواجر، وبلغت من الظُّلم القلوب الحناجر، وقلّت النّصيحة، وكثرت الفضيحة، وانقطعت الجوائز والصِّلات، وتعطّلت في المساجد الصّلوات، واستوت مرتبة العالم والجاهل، وخَربت المساجد "[69].

إنّ حالة الفوضى التي ميّزت مجال الأمن في المجتمع المغربي تجد تفسيرها في الثّورات التي شكّلت ظاهرة ثابتة طوال القرن 19م، كما أنّ اللّصوصيّة المستشريّة ساهمت في تردّي الأوضاع الأمنيّة في مختلف الجهات، ولم تسلم القوافل التّجاريّة، ولا حتّى الحواضر الكبرى كفاس ومراكش وتطوان، وقد تداخلت عدّة عوامل كما سلف الذّكر في استفحال اللّصوصيّة، وانعدام الأمن.

ولمواجهة هذه المعضلة الاجتماعيّة، قدَّم المشرفي مسألة سيادة العدالة، وضبط الأحكام كحلّ نموذجي، وهو ما لمّح إليه عندما استعرض إيجابيات العدل والقوانين الفرنسيّة بالجزائر قائلا:" ولذلك قُلنا هو [أيّ: الفرنسيّين] أحسن من غيره في الأحكام المنافيّة للجَوْر حِفظا لمُلكه من الزّوال ولدولته من الاضمحلال، لعلمهم بأنّ العدل ميزان الحقّ إنْ دام عَمَّر، والجَوْر ميزان الباطل إنْ دام دمَّرْ"[70]، والإشارة ضمنيًا إلى أوضاع المغرب، مع استدراك معلوم لقاعدة أساسها أنّ الحاشيّة والبطانة هي المسؤولة عن الفساد: " وملوك المسلمين لا يصْدر منهم على وجه العَمَد؛ بل ذلك من تدليس الحكّام عليهم والله أعلم"[71]، وهذ الموقف الإيجابي للعربي المشرفي من أحكام غير إسلاميّة لم يكن استثناء وسط علماء عصره الذين اعتبروا تفوُّق البلاد الأوروبيّة راجع أساسًا إلى نظامها السّياسي الضّامن في رأيّهم للحريّة، والمقيّد للسّلطة بالقانون؛ إذ سبقه إلى ذلك **محمّد الصّفار التّطواني** في رحلته إلى فرنسا سنة1845م، عندما أبدى إعجابه بالانضباط للقوانين والتّمسّك بالنّظام قائلا:"لمّا رأينا من قُوَّتهم، وحزْمهم، وحُسْن ترتيبهم، ووضْعهم كلّ شيء في محلّه، مع ضعف الإسلام وانحلال قوّته واختلال أمرِ أهله، فما أحْزمهم، وما أشدّ استعدادهم، وما أتقن أمورهم، وأضبط قوانينهم، وما أقدرهم على الحروب وما أقواهم على عدوهم، ولا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة على الدّين؛ إنّما ذلك بنظامهم العجيب، وضبْطهم الغريب، واتّباع قوانينهم التي هي عندهم لا تنخرم "[72].

من خلال إسهابه في التّنويه بالنّظم الإداريّة والاقتصاديّة التي أقامها الفرنسيون بالجزائر، وانتقاداته الضّمنيّة، أو المباشرة لأحوال المغرب كما عايشها في النّصف الثّاني من القرن19م، وتنويهه ببعض الاختراعات التّقنيّة الأوروبيّة[73]، هل يمكن

ردمد ISSN 2170-1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

اعتبار العربي المشرفي في صفّ المفكرين والفقهاء المتنورين الحاملين لأفكار التّجديد والإصلاح؟.

الهوامش:

* - العماري أحمد، **نظرية الاستعداد في المواجهة الحضاريّة للاستعمار، المغرب نموذجا**، ط 1، المعهد العالمي للفكر الاسلامي – فيرجينيا، 1997، ص: 7 – 8.

2 - المشرفي العربي، **ديوان نظم في من أيقظ للدّين جفن الوسن**، مخطوط: الخزانة الحسنيّة - الرّباط، 5310، ص:111أ.

3السّملالي، العبّاس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط 2، المطبعة الملكيّة - الرباط، 1997، ج 9، ص: 27 ؛ الفرقان حسن، **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن 19 نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي**، ط 1،منشورات: التّوحيدي – الرّباط، 20014، ص: 11 – 12؛ أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، دار: الغرب الإسلامي – بيروت، 1990، ج 2، ص: 175؛ المشرفي العربي، **طرس الأخبار بما جرى أخر القرن الثّالث عشر للمسلمين مع الكفار**، دراسة وتحقيق: يوسف أخليص، دبلوم الدّراسات العليا، كليّة الأدب بن مسيك – البيضاء، 2000، رسالة مرقونة، ص: 189. المشرفي العربي، **ديوان نظم**، ص: 112أ.

4 - أنظر: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء**، م س، ج 2، ص: 175؛ نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر**،ط 2، مؤسّسة: نويهض الثّقافيّة - بيروت، 1980، ص: 303.

5 - يتصل نسبها بعيسى بن إدريس الثّاني، كما أنّ مردّ جميع المشرفيّين إلى جدّهم سيدي علي بن مشرف، وهذا الأخير من ذريّة شرفاء الأدارسة. أنظر: الفضيلي إدريس، **الدّرر البهيّة والجواهر النّبويّة في الفروع الحسنيّة والحسينيّة**، منشورات: وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة – الرّباط، 1999، ج 2، ص: 154.

6 - أبو القاسم سعد الله، **التّاريخ الثّقافي للجزائر**، دار: الغرب الإسلامي – بيروت، 1998، ج 5، ص: 391.

7 - المشرفي العربي، **ياقوته النّسب الوهّاجة وفي ضمنها التّعريف بسيدي محمّد بن علي مولى مجاجة**، مخطوط: الخزانة العامّة – الرّباط، 1534د، ص:47 ب –49أ.

8 - الحنب: يعني قبل أن يشتدّ عوده.

9 - المشرفي، **ديوان نظم**، م س، 111 ب.

10 - السّليماني محمّد الأعرج، **اللّسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب**، مطبعة: الأمنيّة – الرّباط، 1971، ص:85 ؛ أبو القاسم سعد الله، **التّاريخ الثّقافي للجزائر**، ج 3، ص: 181.

11 - المشرفي، **ديوان نظم**، ص: 111 ب.

12 - حيث يركّز على الإشادة بهم والتّنويه بمكانتهم العلميّة وفضلهم عليه ومنهم: **مصطفى بن الطاهر والحاج محمّد بن محمّد بن المصطفى الأحمر**، والسّيّد **السّنوسي بن الحاج عبد القادر**، **وعمرو التّراري بن أحمد بن أبي جلال المشرفي**. أنظر: العربي المشرفي، **ذخيرة الأواخر والأوّل فيما يتضمّن من أخبار الدّول**، مخطوط: الخزانة العامّة - الرّباط، 2659 ك، ص: 8 – 9.

13 - المشرفي، **ياقوتة النّسب**، م س، ص: 4.

14 - المشرفي العربي، **كناشة**، مخطوط: الخزانة العامّة - الرّباط، 204 ك، ص: 34.

15 - هو **أبو محمّد الحاج الدّاودي التّلمساني** الفقيه النّحوي المحدّث، تولّى قضاء تلمسان قبل الاحتلال الفرنسي، ثمّ هاجر إلى فاس، توفيّ بها سنة1854م. أنظر: العربي المشرفي، **الرّحلة الحسنيّة لشمال المغرب**، مخطوط: الخزانة الحسنيّة - الرّباط، 2420، ص: 13 ب ؛ المشرفي، **ديوان نظم**، م س، ص: 111 ب؛ أبو القاسم سعد الله، **التّاريخ الثّقافي**، م س، ج 7، ص: 43 – 44.

16- المشرفي، **ياقوتة النّسب**، م س، ص: 57 ب.

17- المشرفي، **ذخيرة**، م س، ص: 9.

18 - نفسه.

19 - نسبة إلى محمّد بن علي المجاجي، وتوجد بمنطقة الشلف غرب الجزائر العاصمة، وكانت رحلة المشرفي إليها وراء تأليفه لكتاب " **ياقوتة النّسب الوهاجة** ".

20 - الفرقان حسن، **أدبيات الأوبئة**، م س، ص: 18 .

21 - المشرفي، **ذخيرة**، م س، ص: 9 .

22 - غير أنّه لم يشر إلى ما آلت إليه هذه الخزانة بعد وفاة المشرفي. أنظر: أبو القاسم سعد الله، **التّاريخ الثّقافي**، م س، ج 5، ص:387 .

23 - المشرفي، **نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تنفي عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد التّمكدشتي وابنه الحسن**، مخطوط: الخزانة العامّة – الرّباط، 579 ك، ص: 327 .

24 - المشرفي، **كناشة**، م س، ص: 8 .

25 - J L Miege, **Le Maroc et l'Europe1822 – 1906**, Rabat, 1996,T 2, p: 129.

26 - شكّلت هزيمة معركة **عين طاقين** في 16ربيع الثّاني 1259 هـ/ 15 ماي 1843م الضربة الموجعة هي التي تلّقاها الأمير عبد القادر عندما اندحرت فلول أتباعه أمّام **الدّوقدومال Le Ducd'Aumale**، ونكبت زمالته ومحلّته، فتشتّت جموع المقاومة بينما فرّ الأمير في اتّجاه الغرب إلى التّخوم المغربيّة، حيث التجأ إلى قبائل الرّيف. أنظر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الحركة الوطنيّة الجزائريّة**، ط 4،دار: الغرب الإسلامي – بيروت، 1992م، ج 4، ص: 45 .

27 - المشرفي، **كناشة**، م س، ص: 50 .

28 - فمنهم من فرّ إلى طرابلس، ومنهم من فرّ إلى الجريد بتونس، ومنهم من فرّ إلى مدائن الزّاب. أنظر: المشرفي، **ديوان نظم**، م س، ص: 113 أ .

29 - المشرفي، **نزهة الأبصار**، م س، ص: 55 .

30- رغم طلاقه من زوجته ظلّ المشرفي يراسلها بقصائد شعريّة، وتجيبه بالمثل. أنظر: المشرفي، **ديوان نظم**، م س، ص: 4 ب .

31 - نفسه، ص: 113 أ .

32 - أورد ابن زيدان ظهير المولى عبد الرّحمان إلى ولده الخليفة يأمره فيه بإسكان السّقاط دارًا تناسبه بفاس، وإعانته على مؤونته. أنظر: ابن زيدان عبد الرّحمن، **إتحاف أعلام النّاس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق: علي عمر،ط 1، مكتبة: الثّقافة الدّينيّة – القاهرة، 2008م، ص: 124 .

Michaux Bellaire, « Les musulmans d'Algérie au Maroc **», Archives Marocaines**, Volume 11, 1907, p:46 .

33 - المشرفي، **ديوان نظم**، م س، ص: 113 أ – 114 أ .

34 - لقبه النّميشي بحطيئة زمانه. أنظر: النّميشي أحمد، **تاريخ الشعر والشعراء بفاس**، طبع بفاس 1924م، ص: 93 .

35 - الفرقان، **أدبيات الأوبئة**، م س، ص: 83 .

36 - المشرفي، **ياقوتة النّسب**، م س، 47 ب .

37 - نفسه، ص: 58 ب .

38 - المشرفي، **نزهة الأبصار**، م س، ص: 510 – 511 .

39- السّليماني محمّد الأعرج، **زبدة التّاريخ وزهرة الشّماريخ**، مخطوط: الخزانة العامّة – الرّباط، 3157 د، ج 3، ص: 125 .

40 - الجزائري، محمّد بن القادر، **تحفة الزّائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، تحقيق: محمود علي، دار: اليقظة العربيّة – دمشق، 1964، ص: 249 – 250 .

41 - الفرقان، **أدبيات الأوبئة**، ص: 85 .

42 - المشرفي، **طرس الأخبار**، م س، ص ص: 226 – 232 .

43 - نفسه، ص: 251 .

44 - الفرقان، **أدبيات الأوبئة**، ص: 86 .

45 - Kenbeb Mohamed , **Les Protégés contribution a l'Histoire contemporaine du Maroc** , Publication de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines – Rabat, 1996, p: 40 – 47.

46 - الفرقان حسن، **أدبيات الأوبئة**، م س، ص: 61 .

47 - وهي الرّسالة التي تناولها عدد من الدّارسين والباحثين بالدّراسة، اعتمادا على النّسخة الوحيدة المتوفرة بخزانة: محمّد المنوني، انتقلت محتوياتها مؤخرا إلى الخزانة الحسنيّة بالرّباط.

48 - نقلا عن الفرقان حسن، ن م، ص: 62 .

49 - نفسه.

50 - نفسه.

51 - نفسه.

52 - نفسه.

53 - السّباعي، محمّد بن إبراهيم، **كشف النّور عن حقيقة كفر أهل البصبور**، مخطوط: الخزانة العامّة – الرّباط، 1326 د، ص ص: 8أ – 12ب .

54 - الفرقان حسن، **أدبيات الأوبئة**، م س، ص: 62 – 63 .

55 - المشرفي، **طرس الأخبار**، م س، ص: 254 .

56 - المشرفي، **مشموم عرار النّجد والغيطان المعدّ لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السّلطان**، مخطوط: الخزانة الحسنيّة - الرّباط، 12082 ز، ص: 119 .

57 - نفسه، ص: 122 .

58 - المشرفي، **الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس**، مخطوط: الخزانة العامّة -الرّباط، رقم: 2276 ك، ص: 247 وما يليها .

59 - المشرفي، **مشموم**، م س، ص: 136 .

60 - المشرفي، **ذخيرة الأواخر**، م س، ص: 8 .

61 - المشرفي، **مشموم**، م س، 123 .

62 - نفسه، ص: 13 .

63 - المشرفي، **نزهة الأبصار**، ص: 47 .

64 - نفسه .

65 - المشرفي، **الحسام المشرفي**، م س، ص: 294 .

66 - وهو الجواب الذي قدّمه المشرفي لحاكم مصر محمّد علي باشا عند التقائه به سنة 1849م أثناء سؤاله عن سلطان المغرب، وقواته البحريّة، وجيشه النّظامي، وأعداد جنده. أنظر: المشرفي، **ذخيرة الأواخر**، م س، ص: 28 .

67 - برادة ثريا، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، منشورات: كليّة الآداب أكدال – الرّباط، 1997، ص:234 .

68 - المشرفي، **ذخيرة**، م س، ص: 22 .

69 - نفسه، ص: 8 .

70 - المشرفي، **ذخيرة الأواخر**، م س، ص: 23 .

71 - نفسه.

72- الصفار ،محمّد التّطواني، **رحلة إلى فرنسا، صدفة اللّقاء مع الجديد 1845 م– 1846م**، تحقيق وتعريب: خالد بن الصغير، منشورات: كلية الآداب أكدال – الرّباط، 1995، ص: 198 .

73 - حيث نوّه بالمبتكرات الأوروبيّة في المواصلات البحريّة والبريّة والمطبعة والأدوات المنزليّة قائلا:" وكلّ ما فعلوه، واخترعوه فيه مصلحة للمسلمين، وقد عمّ نفعه ". أنظر: **نزهة الأبصار**، ص: 528 .